الجامعة المستنصرية –كلية الآداب– مادة الفكر العربي المعاصر– المحاضرة الاولى

م/الطهطاوي، لحظة الشروع في الثقافة والمدنية

يعد **رفاعة رافع الطهطاوي** الاب الحقيقي لحركة التنوير في مصر الحديثة، ويعتبر أيضاً واحداً من المثقفين العصريين الذين اعتمد عليهم عزيز مصر محمد علي باشا في بناء جهازه الحديث، بعد ما رشحه أستاذه حسن العطار لعزيز مصر كي يسافر الى باريس لدراسة العلوم الحديثة، حيث كان آنذاك الشيخ الازهري يخوض بكلماته وافكاره عبر أمواج الفكر الازهري المنغلق على النقل والحواشي والعجز عن التجديد.

أنَّ أفكار الطهطاوي في المجتمع كانت مهمة وخصوصاً في تلك الظروف حيث كان هنالك نوع من الانغلاق والقيود داخل المجتمع، وكذلك في الازهر، وكان هناك عجز في الأفكار، وانطلق الطهطاوي من هذا المنطلق ليعي الناس، وركز في تجديده في جانب التربية، حيث يقول: "إنَّ الأمة تتقدم فيها التربية، بحسب مقتضيات أحوالها، يتقدم فيها أيضاً التقدم والتمدن، على وجه تكون به أهلاً للحصول على حريتها، بخلاف الامة القاصرة التربية، فأنَّ تمدنها يتأخر بقدر تأخير تربيتها، فأنَّ التربية العمومية هي الحصول على تحسين عوائد الجمعية التأنسية، ومعرفة آدابها علماً وعملاً، والتأدب بآداب البلاد، فالتربية هي أساس الانتفاع ببناء الوطن".

وعن طريق التربية تنبثق الأفكار ويعي الانسان، فيقول: "بالتربية تنمو العقول وتحسن الادراكات، فالغرض من التربية تنمية الصغير جسداً وروحاً وأخلاقاً في آن واحد، يعني تنمية حسياته ومعنوياته بقدر قابليته واستعداده".

يرى الطهطاوي أنَّ غاية التربية تكوين الشخصية لا مجرد حشد عقل الطالب بكمية من المعارف، وهذا ما أكدته العلوم المعاصرة في التدريس حيث يقول **فؤاد زكريا:** "إنّ ملء الذهن بالمعلومات المكدسة كثير ما يكون على حساب قدرة هذا الذهن على الابداع، وكأن التكدس والحشو الذي امتلأ به الذهن يمنعه من الحركة الطليقة، ويخلق لديه نزوعاً الى ترديد ما سبق له أن قرأه، أو سمعه، وهو نزوع مضاد لكل ابداع"،هنا يريد أن يقول الطهطاوي، كثرة الضغط على الطالب يتولد لديه حالة من النفور وبالتالي يكره القراءة ويكره الدرس.

هذا التكدس للمعلومات عند الانسان هو عمل قد يبهر البعض ولكنه لا يدل على أصالة أو ابتكار، ويكرر الطهطاوي كلمات (الوطن) و (حب الوطن) في كتابه عن التربية، وهو يعدد حقوق

المواطنين وعلى رأسها الحرية، إذ من شأن الحرية وحدها أن تخلق مجتمعاً حقيقياً وحباً للوطن قوياً.

وهنا نجد أنّ الطهطاوي يقسم مراحل التعليم العام والتربية العمومية الى ثلاثة أقسام عن طريق تسلسل فكري محكم:

الأول: التعليم الاولي: التعليم الاولي ضروري لسائر الناس، يحتاج اليه كل انسان كأحتياجه الى الخبز والماء، فالتعليم الاولي عام لجميع الناس وهو عبارة عن: تعليم القراءة والكتابة في ضمن تعليم القران الشريف وأصول الحساب والنحو، وهذ التعليم يجب أن يعم جميع أولاد الأهالي.

الثاني: التعليم الثانوي: وهو أعلى درجة من التعليم الاولي، وهو يتضمن العلوم الرياضية والجغرافية والتاريخ والمنطق والعلوم الدينية والطبيعية وفنون الزراعة .... الخ، هذا التعليم أيضاً يجب أن ينتشر بين أبناء الأهالي القابلين له والراغبين فيه.

الثالث: درجة العلوم العالية: هي اشتغال الإنسان بعلم مخصوص يتبحر فيه، بعد تحصيله علوم المبادئ والتجهيزات، كعلم الفقيه والطبيب والفلكي من كل علم يجب تعلمه وجوب كفاية، هذه الدرجة مخالفة للتعليم الأولي والثانوي فهي معدة لأرباب السياسات والرئاسات واهل الحل والعقد في الممالك والحكومات.

أما رأي الطهطاوي في **السياسة**، فمن الأشياء المهمة التي لفتت نظره بباريس (الديمقراطية الليبرالية، ومؤسساتها السياسية، ودستورها، وقوانينها...)، حيث قام الطهطاوي بترجمة الدستور الفرنسي، والتعليق على مصادره، ومقارنتها بالشريعة الإسلامية، وشرح مواده وعلق عليها، ليقول لقومه، بأسلوب مباشر أو قريب من المباشر، ما يوقظهم ويخرجهم من عصور الاستبداد، ومقصد الطهطاوي أن يدخل هذا الفكر السياسي الى الشرق الذي سادت وتسود فيه أنظمة الحكم وشريعة الاستبداد بالسلطات، والسلطان، وعلق الطهطاوي على المادة الخاصة **بحرية الرأي والتعبير**، فأنه يكشف عن إيمانه العميق بالحرية الليبرالية، فهي تقوي كل انسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره، فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه، فيؤكد على حرية الرأي واحترام الاخر مهما كان هذا الاخر (يهودي، مسلم، مسيحي، ... الخ)، وعدم رمي أصحاب العلوم بالكفر والزندقة، وهذه المسائل تطرح اليوم هي: كيف ننظر الى الاخر؟

وفي حديثه عن **التمدن**، عرف الطهطاوي التمدن بأنه: "تمدن الوطن عبارة عن تحصين ما يلزم لأهل العمران من الأدوات اللازمة لتحسين احوالهم، حساً ومعنى، وهو فوق انهم في تحسين

الاخلاق والعوائد وكمال التربية، وحملهم على الميل الى الصفات الحميدة، واستجماع الكمالات المدنية، والترقي في الرفاهية"، كلما زاد التمدن خفت الحروب وقلت العداوات وتلطفت الفتوحات وندرت التقلبات والتغلبات، حتى تنقطع بالكلية، وينمحي الاستعباد والاسترقاق بغير حق، ويزول الفقر والمسكنة.

وفي حديثه عن **الحرية**، فقد عرف الطهطاوي الحرية: "الحرية، من حيث هي: رخصة العمل المباح، من دون مانع غير مباح، ولا معارض محظور"، أما حديثه عن المساواة، فأنه، كمثل حديثه عن الحرية، دليل على عمق وعيه والتزامه بالديمقراطية الليبرالية، فالطهطاوي يعد من أوائل المثقفين الذين دعوا الى الحرية والمساواة، بشرط أن لا تخرج عن حدود العقل، اذ كان مفهوم **المساواة** يلعب دوراً تقدمياً في عصره وفي المجتمع الذي صيغت له هذه الأفكار، والطهطاوي يجعل المساواة قرينة الحرية (وكلاهما ملازم للعدل والإحسان، أما التسوية بين المجتمع فهي صفة طبيعية في الانسان، تجعله في جميع الحقوق البلدية كإخوانه، وهي جامعة للحرية المدنية والحرية الملكية.

ويميز الطهطاوي في الحرية بين اقسام خمسة:

١. **الحرية الطبيعية:** هي التي خلقت مع الانسان، وانطبع عليها، ومن أمثلتها: الاكل والشرب والمشي.

٢. **الحرية السلوكية:** هي الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الجمعية المستنتج من حكم العقل بما تقتضيه ذمة الانسان وتطمئن اليه نفسه في سلوكه من نفسه وحسن أخلاقه في معاملة غيره.

٣. **الحرية الدينية:** هي حرية العقيدة والرأي والمذهب بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين، والمقصود بالحرية الدينية تساوي ما يسمى تخصيصاً باسم (حق الاجتهاد) في الدين، ومن أمثلتها: آراء الاشاعرة والماتريدية في العقائد.

٤. **الحرية المدنية:** وهي حقوق العباد أو الأهالي الموجدين في مدينة بعضهم من بعض، وأساس هذه الحرية أساس إنساني محض، وله جانبان: اجتماعي وفردي.

٥. **الحرية السياسية:** هو تأمين الدولة لكل فرد على املاكه المشروعة وعلى إجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى الدولة عليه في شيء منها.

من هنا نستطيع القول أنَّ المسألة الثقافية تجسدت عند الطهطاوي في التربية التعليم والحرية والمساواة ودوره في وعي الناس وهذا أهم ما يميز المثقف المعاصر اليوم.